# الإسقاط السياسي والاجتماعي في الأدب – كوبارو

**إعداد: ميس داغر**

يُعبّر عن الإسقاط في الأدب كوسيلة دفاعية تارة، ووسيلة هجومية تارة أخرى، ناهيك عن كونه يراوح في أحيان كثيرة ما بين الجدّ والفكاهة، ما يجعله يؤدّي رسالته المنشودة بشكل أكثر تأثيرا. ويحضر الإسقاط الأدبيّ، والروائيّ والحكائيّ بعدّة صيغ، يُعبّر نضجها الفني عن مستوى براعة الكاتب ومرونته وتميّزه.

يمكن تذكّر أمثلة عديدة من تاريخ الأدب على نصوص صاغها أصحابها على ألسنة الحيوانات مثلاً، تحوي نماذج من هذه الإسقاطات. حيث تُعدّ صياغة النصوص على ألسنة الحيوانات وسيلة شائعة للالتفاف على التصريحات المباشرة في النص. وهذا الالتفاف قد يحدث لأسباب متعددة، منها الظروف السياسيّة التي يعيشها المؤلف، والتي تدفعه إلى البحث عن وسائل إبداعية لإيصال وجهات نظره والتملّص من المساءلة والاستجواب في آنٍ معا، أو لدفع القارىء إلى رؤية الصورة البشريّة المنعكسة من خلال سلوكيات الحيوانات، ولا سيّما أنّ البشر يشعرون بالتفوّق عليها، فتراهم حين ينظرون إلى صورهم وممارساتهم من خلالها فإنّ هذا يدفعهم إلى وقفة مع الذات، والاحتجاج على ما هو قائم، والسعي إلى تغييره.

إنّ أي نص أدبي، بما يمثل من تعبير عن حالة شعورية وفكرية لدى مؤلفه، هو بالضرورة إفراز لحالة اجتماعية وسياسية يعيشها هذا المؤلف. حتى نصوص الأطفال، التي قد يعتقد البعض أنها في منأى عن الصراعات الثقافية السائدة، هي أيضاً تقع ضمن هذه المعادلة. لدرجة أننا قد لا نجد نصاً أدبياً واحداً موجهاً للأطفال يخلو من مضامين وطنية أو قومية أو اجتماعية.

وهنا قد تبرز ما يعتبرها البعض إشكالية في أدب الطفل، هذه الإشكالية هي (إلى أي حدّ يمكن للكاتب الزج بالمضامين السياسية أو الاجتماعية أو الايديولوجية في نصّ مكتوب للأطفال).. هل علينا أن نؤدلج الطفل من خلال القصص التي من المفترض أن تكون فسحة تسلية ومرح؟ وفي ظل تغلغل الإعلام والتغطيات المباشرة

للأحداث والحروب التي يتعرض لها الطفل يومياً، أليس من الأفضل أن نُخرج الطفل من خلال القصص الى عالم السلام والاطمئنان؟

في مقابل هذه النظرة التحييدية لأدب الطفل عن الصراعات الاجتماعية والسياسية، تبرز مجموعة أخرى من الأسئلة، تفصح عن وجهة نظر مغايرة: كيف نثقف الطفل ونعرفه على حقوقه وحقوق الآخرين، إذا لم نطرح له في قصصه موضوعات سياسية واجتماعية أساسية، مثل مواضيع العدالة والوطن الآمن على سبيل المثال؟ كيف يتكون لدى الطفل رأيه الخاص وتوجهاته وقيمه ومواقفه السياسية إذا لم يتعرض خلال نشأته إلى نصوص توسّع مداركه في هذا الاتجاه؟

كيف سيعرف الحقيقة، وكيف سيأخذ موقفاً عندما يكبر من قضية لا يعرف تفاصيلها ولا خلفيتها؟ هل نحكي له قصص الواقع والحرب والعنف والنزاعات كما هي في شكل مباشر؟ بأي لغة نخبره تاريخه وانتصارات شعبه وهزائمه واحترام القانون والديموقراطية وتفشي الفساد وتقبل الآخر ونصرة الحق؟

يُجمع العاملون في حقل أدب الأطفال على ضرورة الانطلاق من اهتمامات الطفل وتساؤلاته وبيئته، لإخباره الحقيقة والواقع بأسلوب قصصي أدبي يراعي المعايير الفنية والأدبية التي تحترم عقله وتطلعاته وتفكيره.

بالنسبة لأدب الطفل الفلسطيني، هنالك ملاحظة تُشير إلى أنّ تبدّل السياسات العامة والصراعات وتحوّلها منذ اتفاق أوسلو انعكس على أدب الأطفال، فأصبحت القضية الفلسطينية ومعاناة أهلها مع القصف والحواجز والعنصرية شبه غائبة. إلا أنه ولحسن الحظ، استطاعت نصوص عديدة الإفلات من قبضة هذه السياسات الجديدة، وجدّدّت النَفَس والحسّ الوطني لدى الأطفال واليافعين. يمكن لنا أن نعتبر رواية "كوبارو" الصادرة عن مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي 2017 إحدى النصوص الساعية لايقاظ روح العزيمة، والتحدي في روح الجيل الجديد، وإن كانت ما تزال هذه الرواية تقع في الطور التجريبي للكتابة، وبحاجة ماسّة إلى تمكّن مؤلفها من لغته وأدوات الروائية. ففي هذه الرواية سمات تميّز النصوص الساعية إلى تثبيت الصنف المذكور من القيم:

فهناك مفردات الثورة، العودة، السجن والسجّان، الظالم والمظلوم، المحتل وابن الأرض، إلى غير ذلك من المضامين السياسية. وهي كلها مضامين مستمدة من الحالة الفلسطينية. كما أننا نجد في الرواية توق إلى

الخروج من حالة الخمول واللاجدوى إلى دائرة الفعل في أعلى درجاته ألا وهو الفعل البطولي. توق إلى استرداد الحق المسلوب وعودة أصحاب الحق إلى ديارهم. توق إلى الحرية، توق إلى تحقيق العدالة.

تتأتّى جاذبيّة الإسقاطات في ذهن المتلقي من أكثر من مجرد كونها لعبة فنية وأدبية، فهي تثير فيه ضرورة اقتفائه لأحلامه، وعدم التخلي عنها تحت أي ضغط، والتصدّي لجميع محاولات تدجينه وإسكاته وإدخاله للقنّ، ليمارس دورا آليا يوكل إليه، في الوقت الذي يكون العالم أمامه منفتحا على مصراعيه، والحرية تناديه كي يسعى إليها.